جنازة ...

قصة بقلم سمير تنير

الشمس قرص لهيب . وذرات الغبار الصغيرة تتطاير ، تملأ الجو ، تحط على العيون وتغمم الانوف برائحة الموت . مناديل بيضاء ترتفع بها الايدي الى الجباة تمسح عنها العرق المتصبب في حبيبات ، وهمهمات خافتة تسري بين الجمع وكلمات « الله يرحمه » تدور على الالسن في حزن واسف .

كان المشيعون يتجمعون في ساحة الحي الصغيرة ، وهاهي ام سليم المرأة القائمة دوما بواجب « الولولة » كلما المت بالحي فاجعة موت ، تدور بين حلقات النساء والصبايا اللاتي جئن يتفرجن على الجنازة ، تروي لهن كيف وقعت الحادثة ، وكيف شهدتها ، ونجت منها بقدرة قادر مستعينة بالاشارة وبالتلويح بالايدي وبالتمثيل .

في الطرف الاخر من الشارع اقبل « ابو احمد عانوت » يتهادى بكرشه الضخم ، الذي اوشك ان يمزق البنطال ، يمسح عنه العرق ، وقد احمر وجهه المنتفخ فبدا كالثمرة الناضجة . وما بلغ الرصيف حتى لاقاه «عباس بخور » الدلال وبائع « العتق » ، فانتحى به يتكلمان عن الصحة والاولاد.

قال عباس وهو يرنو بعينيه الثعلبيتين الى ابو احمد :

ـ كيف الحال .. ما هذا الحر ، يبدو ان الصيف هذا العام سيكون فظيعا . يجب ان نتدبر امر الجبل منذ الان اليس كذلك ؟

اجابه ابو احمد متجاهلا :

ـ مسكين .. محمود .. كيف حدث ودهسته السيارة . مسكين لكن لا افهم حتى الان كيف طلعت السيارة الى الرصيف ... هكذا بكل بساطة .. وقصفت عمر هذا الشاب .. حرام .. ظلم .. اين الحكومة ..

ـ معك حق . لكن انتبه .. لقد اوشكت على الكفر . قال الله في كتابه « واذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » صدق الله العظيم . اهه .. محمود .. الشاب الهادىء .. المهذب ، انا اعرفه واعرف والده الله يرحمه . كنا اصدقاء . واتذكر محمود وهو بهذا الطول .. يلعب وينط ، كان ذكيا منذ صغره...

الله يرحمه

كان عباس يتطلع نحو منزل الميت وهو يتحدث ثم انتبه على صوت « فضل عجمي » البقال وقد اقبل مسلما عليهم . فهتف به :

ـ اهلا وسهلا .. اهلا كيفك يا شيخ . اين تختفي، لا احد يراك.لاتنكر. شاهدتك منذ اسبوع في السوق لكنك لم تتطلع الي . كيف الشغل عندك. الم يزل سوق دكانتك ماشيا .

اجابه فضل وعيناه تلمعان ووجهه يتجهم :

ـ زفت .. لا تسأل . لا احد يطرق بابنا . نتسلى بالمراوح .

وسأله عباس ووجهه الثعلبي يتخذ شكلا جديدا :

ـ الخزانة القديمة .. في محلك ، تلك التي تصف عليها علب الصابون. الم تبعها بعد ؟

ـ لا ... اريد لها ثمنا معقولا .

ورفع ابو احمد يده الى كتف عباس يهزه

ـ يا شيخ ، اتيت تشيع الميت .. حرام عليك .

سحب فضل خيوط نظراته من على شرفة بيت الميت وقد تزاحمت فيها نسوة يتشحن بطرحات بيضاء .

ـ محمود ... الله يرحمه . كان يشتري من عندي كل اغراض بيتهم منذ توفي والده .. لكن .. متى ستمشي الجنازة .

ـ الساعة الحادية عشرة . سمعت الاولاد بهذا يتحدثون .

تعالت من الشرفة اصوات ولولات منفعلة تعلن اقتراب الموعد . فها هو التابوت الخشبي يحمله رجال يصعدون به درج المنزل . و « ام سليم » واقفة في الشرفة تصرخ صرخات منكرة تنقبض لها القلوب ، والنسوة من حولها يجاوبنها بنشيج ، وكلمات غير مفهومة . تكلم النسوة يقسن الحياة بالعمر ، بعدد السنين المعاشة ، فالشاب تنثر على تابوته الازهار وتبكيه الصبايا ، وتنشق له صرخات العجائز . اما اذا كان الميت ابن خمسين فالبكاء اقل والصراخ اخف على السمع . وقل ان يحظى ابن السبعين بدمعة واحدة ، عزاؤه الوحيد هو الصمت الهادىء وكلمات « كتب الله لنا عمرا مثل عمره » . لذا فالجنازة اليوم حافلة ، والدموع تنثر بلا حساب .

قال عباس :

ـ تطلعوا .. « ام سليم » تقوم بالواجب اليوم خير قيام .

ثم مال على اذن فضل يهمس : « ماذا قلت لي .. هل تطلب كثيرا في الخزانة » ولم يجبه فضل ، بل اخرج من جيبه سيجارة واحدة اشعلها، واخذ منها نفسا عميقا ، ثم اطلق الدخان ، بعد طول احتباس من منخريه

ـ قلت لك لن ابيعها الا بثمن معقول . انت تريدها نهبا . تظن اني ساطلب ثمنا فاحشا في حين اني متساهل جدا.

وعلى حين غرة ، صاح ابو احمد بلهجة سجين اطلق لتوه :

ـ يا لطيف .. يا جماعة.البارحة شاهدته مع صديقه يضحك وينكت واليوم جثة ممزقة . ربنا نجنا من ساعة الغفلة .

ـ يقال انهم انتزعوه من بين الدواليب وقد تهشم راسه وتناثرت اعضاؤه . لا تزال بقايا دمه على الارض ... هناك امامك يا ابو احمد على الرصيف بقايا دماء .

وكاد ابو احمد ينفجر باكيا وهو يتطلع الى اثار الدم وقد امتزج بها التراب .

ـ ماذا تقولين اتكفي ثلاثون ليرة .

ـ لا .. هذا نهب

ـ يا اخي الشاب محمود طلب من امه الاسبوع الماضي ان تزوجه ، فخطبت له صبية حلوة . كانت نفسه تطلب الحياة ، وكأنه على علم بما خبيء له . الانسان قلبه دليله . واليوم تزوج . تزوج القبر . يا سلام ! اهكذا يتبخر الانسان .. ووو..ست. هكذا بثانية تروح كل ايامه .

ثم تابع ابو احمد كلامه وكأنه يقص حكاية اسطورية على احفاده :

ـ الم تقرأوا الجريدة اليوم . الصفحة الاولى كلها عن الحادث . صور وريبورتاج كبير . يقولون انه كان من احسن موظفي الحكومة . وانه منذ سنتين فاز بجائزة مدرسته الاولى . صورة خطيبته وهي تبكي تقطع القلب .. الم تشاهدوها .

وفي هذه اللحظة التفت الثلاثة نحو درج المنزل . صبية حلوة تلبس ثيابا سوداء ، تصعد ، وبجانبها عجوز تمسك يدها .

ـ من هذه الحلوة ؟

سأل فضل .

ـ لعلها قريبة محمود

ـ ما اسمها ؟

ـ اظن .. فتحية .

ـ لا يا جماعة . هذه خطيبة محمود التي حدثتكم عنها . عرفتها من الصورة .

همس عباس في اذن فضل : « ما رأيك هل تقبل اربعين . »

ـ لا .. هذا قليل .. قليل جدا .

سار فضل قليلا نحو باحة البيت ، ثم رمى سيجارته المطفأة . واشعل اخرى ، مج دخانها ببطء . وما شعر الا وعباس وراءه .

ـ لن ادفع اكثر من اربعين

ـ انت حر .

كانت الحركة على اشدها في البيت ، وقد وفد اليه بعض المشايخ فانفجرت صرخات حادة تبعها نشيج اخذ يشتد وام سليم ترجو الرجال ان يترفقوا بالمائت وان يشفقوا على امه ويتركوه كي تتملى منه بنظرتها الاخيرة . وحانت الساعة ، فرفع الرجال المائت الى التابوت . وعند ذلك تقاطرت النسوة اليه يحملنه السلام الى ابائهن وامهاتهن وجداتهن وماسكت النشيج الى ان ابتعد الموكب ومشت صفوف المشيعين وراءه كجيش جرار . وما انفرط عقد الثلاثة . فقد مشوا معا وراء النعش .

ـ جنازة هائلة يا جماعة .

ـ شاهدت اكبر منها جنازة الدكتور ابو خشبة كادت تبلغ الكيلومتر طولا .

ـ سأعطيك خمسا واربعين

ـ لا .. جعل الله مأواه الجنة . لن اقبل بغير الخمسين .. ورقة واحدة .

ـ يا لك من عنيد .

ـ رحمه الله ... أنا لست عنيدا .. لن تحصل عليها بغير هذا الثمن .

كانت الجنازة قد بلغت في سيرها المقبرة . فرفع بعض الرجال غطاء النعش . ثم امسكوا بالميت مكفنا واستلمه واحد منهم على فوهة القبر . ثم اهالوا عليه التراب ، وهم يذكرونه باصواتهم المتهدجة بما يجب ان يقوله « للملكين الشقيقين الرفيقين » اذا ما سألاه عن دينه وربه .

ـ الن تخفض ثمنك قليلا .

ـ لا ..

ـ قبلت . الله يلعنك !

ـ هات .

وامتدت يد فضل تقبض على الخمسين ليرة

ـ تعال الى محلي بعد الظهر .. لاستلام الخزانة .. عظم الله اجركم بخاطرك ..

وابتسم فضل بخبث وهو يشد على ايدي المشيعين ..

ـ عظم الله اجركم ...

ولما تفرق الجمع كانت الخمسون ليرة قد استقرت تماما في جيب فضل .

سمير تنير